أمامه حيّة على لسان البلغاء من العرب قبل الاسلام . ثم عرفها ندية معجزة في الكتاب العربي المبين ، كما عرفها بعد ذلك رائعة في تراث الأعلام من خطبائه وكتّابه وشعرائه حتى أواخر القرن الرابع ...

على أن تلك البلاغة التي عرفها العربي بطبعه كما عرفها بعقله لم تصل إلينا على ما عرفها عليه ... إنها وصلت إلينا بعد أن مرّت - عبر تاريخ طويل - بعصور طبعتها بالكثير من سماتها، وشابتها بالكثير من آثارها وخصائصها ، فإذا هي على ما نراها عليه اليوم من تأثر بالمنطق ، وإيغال في الفلسفة ، وبعد عن الطبع ، واتسام بذوق عصور الدول المتتابعة ... ونحن أنفسنا لم نصل إليها إلا بعد أن تأثرنا إلى حدّ بعيد بالأدب الغربي وفنون القول فيه .. وتأثرنا بمذاهبه النقدية ، ونظرتها إلى الأمور البلاغية .

لقد عرفنا البلاغة بعد أن أصبحت حدوداً منطقية ، وشروحاً فلسفية، وصنعة متكلّفة، فرأيناها تعابير جامدة، وتعريفات أقرب إلى حدود النحو أو المنطق منها إلى ذوق الفطرة وطبع النفس .

ومضت بعد ذلك عصور الركود، وفتحنا أعيننا على الغرب ، فإذا هو منّا على بُعدٍ بعيد... ولم يكن لنا بدّ من أن نحثّ الخطا مهتدين